فلسفةُ الرفضِ وأبعادُها الدَّلاليَّةُ في شعرِ فوزي كريم (١)

أ.م.د. إسراء عامر شمس الدِّين
جامعة بغداد / كُليَّة الآداب / قسم اللُّغةِ العربيَّةِ

الملخصُ:

يُعدُّ فوزي كريم شاعِرًا وكاتبًا ورسَّامًا من الجيل الستينيِّ، غادرَ العراق مرتينِ، كانتِ الثانية إلى منفاهُ الأخير، لندن، صدرتْ مجموعتهُ الشعرية عن دارِ المدى، وبعدَ اِستقرائها، وجدتُ فيها تكرُّرًا لرفضهِ واقعَ وطنهِ تغييبًا لذاتِ الإنسانِ ومُكوِّنهِ الوجوديِّ، لذا آثرَ الهجرةَ، التي لَمْ تكن أقلَّ وطأةً من موطنهِ، إذْ الضياعُ الذَّاتي، والنفس المُتآكِلَةُ شوقًا إلى الأهلِ والأصدقاءِ وأماكنِ الصبا والشباب.

وددْتُ تقسيم البحثِ على أساليبَ الرفضِ والألفاظِ، إلاَّ أنَّ التمازُج بين الاثنينِ دفعني إلى اختيارِ مسلكِ الدَّلالةِ، مقسمةً إيَّاها على : رفضِ واقع الوطن ، ورفضِ واقع الغربة .

الكلمات المفتاحية: فلسفة الرفض، فوزي كريم، الدلالة، الوطن، الغربة.

Refusal Phylosoph , Semantics Dimensions in Fawzi Karim Poetry

Assistant Prof. Dr. Israa Amer Shams Alddin
University of Baghdad / College of Arts - Arabic Languge Dept

Abstract:

The research Title is (Refusal Phylosoph , Semantics Dimensions in Fawzi Karim Poetry). He is an Iraqi Poet, Writer & Painter at Sixteenth decade. He left to London at seventeenth Last Century & Stayed there.He Published his Poetry in two Parts from Dar Al-Mada . I Prefered to Study his poetry semantically to refuse the philosophy of motherland & alienation effects. Because of combination of negative pattern with speech vocabulary.

Keywords: Philosophy of rejection, Fawzi Karim, Aldalala, homeland, alienation.

جُبِلَ الإنسانُ على رفضِ مُعوِّقاتِ مسيرتهِ الحياتيَّةِ المصنوعةِ رفضًا، إمَّا فعليًّا ظاهريًّا وإمَّا معنويًّا تلميحيًّا، وبما أنَّ الأدبَ ، شعرًا كانَ أم نثرًا، يُكتبُ بمِدادِ أسلاتِ هذا الإنسان، فلا بُدَّ لهُ من تسجيلِ مظاهرهِ الحياتيةِ بلُغةٍ "ذاتِ طبيعةٍ فذَّةٍ تختلِفُ عن طبيعةِ أيَّةِ ظاهرةٍ أُخرى من ظواهرِ هذا العالمِ"[٢]، هذهِ الطبيعةُ اللُّغويَّةُ الفذَّةُ هي السمةُ الإبداعيَّةُ المُتبناةُ من الأديبِ، الَّذيْ توكَلُ لهُ عَبْرَ آثارهِ مُهمَّةُ تمزيقِ نُقُبٍ تُخفيْ وراءها نُفوسَ البشرِ[٣]، والشاعِرُ ذو مزيةٍ لُغويَّةٍ تنأى عن كونِها دوالاً على المعانِيْ، بل هي الكيانُ الذَّاتِيُّ المُستقلُّ رابِطُها المعنى، لذا فالعَلاقةُ بينَ اللفظِ والمعنى مُزدوجةٌ لديهِ ذاتُ تشابهٍ سحريٍّ وتبادُلٍ دَلاليٍّ [٤]، هذا الازدواجُ العَلائقيُّ هو ذاتُهُ بينَ الفلسفةِ وفكرِ الإنسانِ، فهي مدعاةٌ للتفكُّرِ بكُلِّ مُتعلِّقاتِ الحياةِ، لذا عرَّفها الفلاسفةُ المتقدِّمُونَ بأنَّها (معرِفَةُ الحياةِ) أو (معرِفَةُ النَّفْسِ) أو (الفضيلةُ الكاملةُ) [٥].

ولعلَّ مفهومَ المعرِفةِ الدَّالَّ على المعارفِ الإنسانيَّةِ والمجتمعيَّةِ، فضلاً عن الطبيعةِ وما وراءها ، بل كُلُّ ما يَخْفى على مداركِ الإنسانِ، والسعي من أجلِ بلوغِ الحقائقِ أيًّا كانَتْ، هو ذاتُهُ مفهومُ العِلْمِ المُمنهجِ اليوم، إلاَّ أنَّ الأوَّلَ أشملُ وأوسعُ [٦]، والرأيُ أنَّ مباحِثَ العِلْمِ وإنْ تخصَّصَتْ حديثًا غيرَ أنَّها باتَتْ وشيجةَ الصِّلَةِ ببعضها، إثرَ التطوُّرِ الحاصلِ فيها. وفلسفةُ اليومِ محورُها البحثيُّ البشرُ، وموضوعُها الحقيقةُ، ولا سيَّما حقيقةُ الإنسانِ [٧]، مُتخطيةً ما يُسيِّرُ حياتهُ تقنيًّا إلى ما يُؤثِّرُ في سعادتهِ الحياتيَّةِ أو شقائهِ، وتلكَ هي العواملُ الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّةُ والنفسيَّةُ [٨]، ولا بُدَّ من الإشارةِ إلى العاملِ السياسيِّ الَّذيْ باتَ مؤثِّرًا في مُجملِ ما تقدَّمَ من عواملَ .

وفلسفةُ الرفضِ أو النَّفي أو الـ (لا) قائمةٌ على مُحرِّكِ الفكرِ العلميِّ اليومِ / الحركةِ المُزدوجةِ، فالتعاقُبُ الإلزاميُّ القبْلِيُّ والبْعديُّ، والترابطُ التجريبيُّ بالعقلانيِّ يؤديانِ إلى قولِ (لا) للمعارفِ السابقةِ لاستحصالِ معارفَ جديدةٍ، إنَّها الطموحُ والنشاطُ البنَّاءُ، المولِّدُ تشتُّتًا نفسانيًّا حقيقيًّا، مُظهرًا شتاتًا فلسفيًّا حقيقيًّا هو الآخرُ، فالفكرةُ تُولِّدُ جذرًا فلسفيًّا[٩]، إنَّها معادلةُ الإبداعِ أيًّا كانَ مجالُهُ، فالعقلُ مصدرُ الفلسفةِ والإبداعِ، وكلاهُما ناجمٌ عن وعي الإنسانِ وحُريتهِ، الرافضِ التخلي عنهما، لذا اِقتربَتِ الفلسفةُ من الأدبِ في العصرِ الحديثِ، وسِرُّ ذلكَ الاقترابِ هو الإنسانُ المُمَثِّلُ التجربةَ البشريَّةَ الحيَّةَ بما تحمِلُهُ من عُمقٍ وواقعيَّةٍ وثراءٍ [١٠] .

إنَّ معاناةَ الإنسانِ، وإنْ كانَتْ بينيَّةً، في عصرٍ مثخنٍ بالعُنفِ، والظُلْمِ الاجتماعيِّ، والتمايزِ الاقتصاديِّ، وتوالي الحروبِ بأشكالِها، وسَحْقِ الذَّاتِ الإنسانيَّةِ، وتمظهرِ التساؤلِ عن مغزى الحياةِ والموتِ، ولَّدَتْ أدبًا رافضًا، مُحتجًّا على واقعٍ ما، داعِيًا إلى الخلاصِ من الخرابِ الحسيِّ والمعنويِّ، ومُريدًا عالمًا تظلِّلُهُ الحريَّةُ بمعناها الحقيقيِّ غيرِ المُزيَّفِ[١١].

وفي حياةِ الشاعِرِ فوزي كريم أثرُ معاناةِ الإنسانِ العراقيِّ، سواءٌ في الوطنِ– أيًّا كانَتِ الضغوطُ – أم في المنفى– الحنينُ إلى الجذورِ والهويَّةِ– ، فهو المُريدُ تحقيقَ الذَّاتِ على أرضِ وطنهِ، إلاَّ

أنَّ العينَ تستكشِفُ قسوةَ الإلغاءِ لها، ثمَّ أنَّ هذا اللامعقولَ الَّذيْ تعجُّ بهِ مدينتُهُ بغدادُ، كُلُّها جعلتهُ يرفعُ يدَهُ اِحتجاجًا، ويُطلِقُ صوتَهُ صرخةً، معلنًا تمرُّدَهُ ضدَّ مطلقِ الشرِّ، ليُحلِّقَ طائرًا نحو عِشٍّ مُرتَجَى(١٢).

والرفضُ في أصلِ وضعهِ يعني التركَ (١٣)، وهو مظهرٌ اِنسحابيٌّ مشحونٌ بقوَّةٍ اِنفعاليةٍ(١٤)، تتمثَّلُ في سلوكِ الإنسانِ وتكوينهِ الفكري، هذا التكوينُ منبعُ اللُّغةِ، ولِما وجدتُ من تداخُلٍ بينَ النفي بالأساليبِ النحويَّةِ، وبالألفاظِ، اِرتأيتُ المزاوجةَ بينهما، وعرضها في سياقٍ دَلاليٍّ يضمُّ محورينِ: الأولُ رفضُ واقعِ الوطنِ، والثاني رفضُ واقعِ الغربةِ .

المحورُ الأوَّلُ: رفضُ واقعِ الوطنِ:

ففي رفضِ واقعٍ ما ، مؤدٍ إلى رفضِ الذَّاتِ ، والسعي للارتحالِ ، قولُهُ (١٥):

فليقطعْ كُلٌّ منا دربًا ،
ويُلاشي وقعَ الأقدامْ
حتى لا يتركُ أثرًا فتُلاحِقُهُ الأيَّامْ !
لكنْ مَنْ صَحِبَ النفسَ تُزاحِمهُ الآلآمْ !
ولذا فأنَا حذِرٌ من صحبةِ نفسي .

اِتَّخذَ الشاعِرُ من أمرِ الذَّاتِ (لِيَقْطَعْ) مُنطلَقًا للرحيلِ والفُرْقَةِ، والمعنى المُرادُ والمُتضِّحُ من النصِّ الشعريِّ تقريرُ حقيقةِ وجوبِ تجرُّدِ الجسدِ من الذَّاتِ أو النفسِ .

وصاحبَ الأمرَ النفيُ بـ (لا يتركُ) ، و(لا) هذهِ تدخُلُ على الفعلِ المضارعِ لتخلِّصهُ إلى زمن الاستقبالِ ، بحسبِ رأي النحويينَ، ومقولةِ سيبويه (ت ١٨٥هـ) " إذا قالَ : (هو يفعلُ) ولم يكن الفعلُ واقعًا ، فنفيهُ (لا يفعلُ)"(١٦). وتفرَّدَ اِبنُ مالك (ت ٦٧٢هـ) بتخليصها إيَّاه إلى زمن الحال (١٧). فإنْ اِقترنَتْ بالماضي جُعِلَتْ بمنزلةِ (لم) مع المضارع (١٨)، أي أنَّها تمنحهُ زمنية المضي. ووردَتْ في زمنية الاستمرارِ كقولهِ تعالى ﴿لا تأخُذُهُ سِنةٌ ولا نومٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ورجَّح د. فاضل السامرائيّ عدمَ تقييدِها بزمنٍ ما (١٩).

والرأي هنا أنَّها في زمنيةِ الحالِ، لأنَّ السياقَ حديثٌ ذاتيٌّ مع النفسِ بوجوبِ الفُرقةِ، وإضاعةِ آثارِ الأقدامِ، خشيةَ الملاحقةِ، و(يُلاشي) كلمةٌ عربيَّةٌ مُولَّدةٌ، فصيحةٌ وصحيحةٌ، تعني الاضمحلالَ، مُركبَّةٌ من (لا + شيء)، إذْ يكثُرُ اِستعمالُها في الكلامِ (تلاشى الشيء)، بمعنى تغيَّر وضعُهُ، وهي مِمَّا يتداولهُ العراقيونَ (٢٠).

واِستدركَ الشاعرُ بـ (لكن) المُخفَّفةِ، وهي حرفُ اِبتداء، لورودِ كلامٍ بعدها (٢١)، مُعلِنًا حذرهُ من صُحبةِ نفسهِ لِكثرةِ آلامِها .

وفي المضمونِ نفسِه قولُهُ [٢٢]:

لا تطأ الأرضَ نديمـي بحذائينِ
عَزِّ قدميكَ فهذا آخـرُ عـهدينا
بتُرابِ الأرضْ .
غدًا يتسعُ حذاءُ المنفـى لكلينا .

في النصِّ طلبانِ ، تمثَّلَ الأوَّلُ بالنهي (لا تطأ)، و(لا) هذهِ تدخُلُ على الفعلِ المضارِعِ، لتجزِمَهُ، وتمنحهُ زمنية الاستقبالِ، مُتكلِّمًا أم غائبًا أم مُخاطَبًا [٢٣]، وهو ما عليهِ الفعلُ، ويخرجُ عن أصلِ معناه بقرائن سياقية [٢٤] ، وأجدُ معنى التأسُّفِ في الطلبِ .

والثاني بالأمرِ (عَزِّ)، وهو فعلٌ مزيدٌ، مضعفُ العين، أصلُهُ (عَرَّى / فعَّل)، والخطابُ موجَّهٌ إلى النديمِ، بجملةِ نداءٍ اِعتراضيَّةٍ ، وتقديرها (يا نديمي)، إذْ إنَّ ما يُقدَّرُ من أدواتِ النداءِ المحذوفة (الياء)، لكونها أمُّ أحرفه، ولكثرةِ تداولِها في الاستعمالِ [٢٥].

وأُخِّرت جملةُ النداءِ لكونِ الأرضِ بؤرةَ النصِّ، إذْ رفضَ وطأها، وأمرَ بتعريةِ القدمينِ من أجلِ السيرِ عليها، تقديسًا لها، وتكريمًا لشأنها، فهي الوطنُ، المُجبرُ على مغادرتِهِ، رافضًا واقعًا ما فيه، واضعًا زمنية الغدِ موعدًا للرحيلِ الأبديّ.

فِي النصِّ إزاحةٌ لُغويَّةٌ عن الطابعِ المنطقيِّ نحو البُعدِ الوجوديِّ الشاعِريِّ، أي بينَ الظاهرِ التعبيريِّ والباطِنِ الإراديِّ المُتميِّزِ بالخلقِ والابتكارِ ضمنَ حدودِ اللُّغةِ أو هيولَى العبارةِ [٢٦]، والمُتمثِّلةِ بقولِهِ (حذاء المنفى) ، إذْ جعلَ للمنفى حذاءً وهو أمرٌ غيرُ منطقيٍّ إلاَّ أنَّ إرادةَ الضياعِ الذَّاتيِّ حتَّمتهُ، هذا الضياعُ تأتَّى من بُعدِ الخطوِ، وعدديَّةِ السائرينَ إليهِ، ويقينِ اللاعودةِ .

وفي معنى المُقاومةِ رفضٌ لواقعٍ مأزومٍ ، ثبتهُ الشاعِرُ في قولِهِ [٢٧]:

ألاَ اِنهضوا
فهذهِ الإنارةُ التي من الفنارِ تُومِضُ ،
كأنَّها الشمعةُ في مَرْقَدْ ،
أو لسعةُ البرقِ التي تجرحُ وجهَ الزمنِ المُجهدْ ،
أو أنَّها ، كما ألفتُمْ ، وهمْ
في لحظةِ اليأسِ ، يُغذِّي كُلَّ عِرقٍ في الجبينِ الجهمْ ،
أو أنَّها ... كأنَّها ...
ألاَ اِنهضُوا ...
ألاَ اِنهضُوا .

اِفتتحَ الشاعِرُ النصَّ واِختتمهُ ببنيةِ (ألاَ اِنهضُوا) ذاتِ المُكوِّنينِ الطلبيينِ، في سياقِ دفعِ القدراتِ الذَّاتيَّةِ للتغييرِ. و(ألاَ) المُخفَّفةُ هذهِ والداخلةُ على الجملةِ الفعليةِ الطلبيةِ، من أدواتِ التحضيضِ، أي الطلبِ بحثٍّ، تُفيدُ توكيدَ مضمونِ الجملةِ، لِمَا لمكوِّنها التركيبي من معنى الإثباتِ، فهي مركَّبةٌ من همزةِ الإنكارِ وحرفِ النفي، ونفي النفي إثباتٌ [٢٨].

أمَّا البنيةُ الخبريَّةُ، فأشَّرَتْ إيماضةً في الأُفُقِ، و"الواو والميم والضاد : كلمةٌ تدلُّ على لمعانِ شيءٍ" [٢٩]، فهي الإضاءةُ الخفيفةُ [٣٠]، وما يدعمُ ذلك (شمعة ، ولسعة البرق)، وتمثَّلَتِ الإشارةُ بـ (هذهِ) الدَّالةِ على القربِ [٣١]، وأجدُ أنَّ معنى القربِ مُتأتٍ من كونها إشارةً حسيَّةً منظورةً، وليستْ مسافيَّةً .

والإشارةُ عمليَّةٌ لغويَّةٌ من الدرجةِ الثانية، أي إنَّها ليستْ مُكوِّنًا أساسيًا في الجملةِ، بل يُرادُ منها توجيه المُخاطَبِ إلى بؤرةِ المضمونِ اللُّغويِّ [٣٢]. هذهِ الإشارةُ أعملَتْ في الخطابِ ثلاثًا: إنارةَ السكونِ، وجرحَ حاضرٍ مُتعَبٍ، ومدَّ عروقِ وجوهٍ أَلِفَتِ العبوسَ.

وفي النصِّ إخبارٌ مضمرٌ، أو ما يُسمَّى بالحذفِ المُخبرِ عنهُ"الذي يظهرُ على شكلِ وقفاتٍ من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أُخرى يتواصلُ من خلالهِ الخطابُ اِرتباطًا شكليًّا ... على اِعتبارِ وحدةِ الموضوعِ المُعبَّرِ عنهُ " [٣٣] ، فاسحًا بذلكَ المجالَ للمُتلقي في تقديرِ المواقفِ .

وفي الاحتجاجِ رفضٌ آخرُ ، تمثَّلَ في قولِهِ [٣٤]:

إنِّي أُحوِّمُ من زمنٍ فوقَ غَمرٍ من الأسئلةِ
كالسَّديمِ ، وأنبشُ تُربتها الموحِلَة
وأُقيمُ اِحتجاجي !

في خِطابِ الذَّاتِ إقرارٌ بضياعِها، في خضمِّ تساؤلاتٍ عائمةٍ لا قرارَ لها، هذا الإقرارُ وظَّفَتْ لهُ أداةُ التوكيدِ (إنَّ)، التي تُفيدُ اِتِّصافِ المسند إليهِ / المبتدأ المتمثِّل بـ (ياءالمُتكلِّم)، بالمُسند / الخبر، وهو الجملةُ الفعليَّةُ ومتعلِّقاتُها (أحوِّمُ فوقَ غَمْرٍ من الأسئلةِ من زمنٍ)، وما تقديمُ (من زمنٍ) إلاَّ لبيانِ أنَّ المسألةَ ليستْ آنيَّةً.

وفي اِستعمالاتِ الشاعِرِ الفعليَّةِ تدرُّجٌ حركيٌّ، أُحوِّمُ / الدورانُ في الشيءِ نفسِهِ، وأجدُ فيه دورانًا ذهنيًّا، أي إنَّ الحركةَ ذهنيَّةٌ، وأنبُشُ / البحثُ إظهارًا لشيءٍ ما، وفيهِ حركةٌ بدنيَّةٌ، إنَّ هذا المدَّ الذَّهنيَّ والبدنيَّ دفعهُ إلى وقفةِ إصرارٍ مثَّلهُ الفعلُ (أُقيمُ) وهو مادلَّ على اِنتصابٍ أو عزمٍ [٣٥]، ليكونَ مُنطلقًا للاحتجاجِ، أي المُعارضةُ باستنكارٍ، واللفظةُ مولَّةٌ[٣٦].

ولا بُدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ (التربة الموحلة) تأتت من (غَمْرٍ و سديمٍ)، وكلتا اللفظتينِ تدُلانِ على الماءِ كثرةً وتدفُّقًا [٣٧]، ولا مانعَ لهما بالإجابةِ عن الأسئلةِ إيَّاها .

ولعلَّ في العزلةِ التي اِتَّخذتْ مدًى في شعر الشاعِرِ، لفظًا أو معنًى، رفضًا لواقعٍ يحياهُ الإنسانُ، ففي سياقِ المعنى قولُهُ[٣٨]:

أختارُ رُكنًا قصيًّا
أُراقِبُ منهُ الجموعْ
وهي تسعى إلى غيرِ غايةٍ
بعينينِ غافيتينِ وقد أتعبتها الدموعْ.

تُعدُّ العُزلةُ نوعًا من أنواعِ الاغترابِ الاجتماعيّ، فهي اِنفصالُ الفردِ عن ثقافةِ المجتمعِ السائدةِ[٣٩]، غيرَ أنَّها مِمَّا يحتاجُ إليهِ المرءُ للنظرِ في علمٍ أو لاستنباطِ حِكمةٍ، لِمَا تمنحهُ من اِختلاءٍ ذاتيٍّ وذهنيٍّ، لا يتوافرانِ مع مُخالطةِ الناسِ [٤٠].

إنَّ بنيةَ الخطابِ الفعليَّةِ (اختارُ) تُثبتُ أنَّ الاختيارَ ذاتيٌّ، وبمقصديةِ المُلاحظةِ أو المُتابعةِ[٤١] (أُراقِبُ)، وأداةُ المراقبةِ العينانِ، تلكَ العينانِ ليستا مُتيقظتينِ، بل مُتعبتانِ من الدموعِ، هذهِ الدموعُ أسفًا على سعي الآخرينَ من دون هُدًى.

وجديرٌ بالذكرِ أنَّ اِستعمالَ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّالةِ على الاستقرارِ والثبوتِ [٤٢]، في مسألةِ السعي إثباتٌ من المُتكلِّمِ لأمرينِ، أحدهما: أنَّ الأمرَ ليس آنيًا بل مُتجذرٌ، والآخر منحهُ صفةَ الاستمراريةِ، لكونِ خبرِها فعلاً مضارِعًا (هي تسعى ...).

ولعلَّ الهندسةَ التركيبيَّةَ للنصِّ، وما وردَ فيها من تقديمٍ رُتبي، ناجِمٌ عن اِرتباطٍ شبكيٍّ للمعنى، وأصلُ الجملةِ (أُراقِبُ الجموعَ بعينينِ غافيتينِ منه)، قُدِّمَ (منهُ / شِبه الجملة الجار والمجرور)، ملاءمةً لفعلِ المُراقبةِ ومكانهِ (رُكنًا قصيًّا)، وأُخِّرَتْ (الجموع / مفعول بهِ)، ملاءمةً لجملةِ الحالِ العائدةِ عليها (هي تسعى...)، وأُخِّرَتْ (العينين الغافيتين / شبه جملة جار ومجرور) ملاءمةً لجملةِ الحال العائدةِ عليها (وقد أتعبتها ...).

المحورُ الثاني: رفضُ واقعِ الغُربةِ:

إنَّ الحنينَ إلى الوطنِ، والتغني بمفرداتِه، وتأمُّلَ مراحِلِ العمرِ فيهِ، يُعدُّ رفضًا للغربةِ، ففي اِستذكارِ الطفولةِ قولهُ [٤٣]:

أطلُّ على رأسِ أُمي ، أبي والهمومْ ،
ثلاثةُ أجنحةٍ لملاكِ الطفولةِ ،
وأبكي طويلاً .

يستدعي الشاعِرُ من خزينهِ الذِّهني الطفولَةَ، تلكَ المرحلةُ التي يعتمدُ الإنسانُ فيها كُليًّا على الوالدينِ، إذ تُعدُّ الأسرةُ البيئةَ الاجتماعيَّةَ الأولى المؤثِّرة في تنشئةِ الطفلِ [٤٤]، موظفًا الفعلَ (أطُلُّ)

أي أُشْرِفُ [٤٥] ، هذهِ الإطلالةُ دفعتهُ إلى البكاءِ، إذْ ما حَمِلَتْ لهُ سوى الأُمِّ والأبِ والهمومِ، هؤلاءِ الثلاثةُ رافقُوا طفولَتهُ الملائكيَّةَ، ذاتَ الجدبِ والحرمانِ.

وفي تأشيرِ وشائجِ العلاقةِ بينهُ وبينَ الأهلِ والأصحابِ والأرضِ التي لم تنقطعْ روحيًا دَلالةُ رفضِ التغرُّبِ الذي عُدَّ مسلكًا لا مفرَّ منهُ [٤٦]:

ولي عِشرةٌ من مِدادْ ،
وبيتٌ تغرَّبْتُ عنهُ .
وما من مغيبٍ يُغادرُ دوني .

وظَّفَ الشاعِرُ البنيةَ الاسميَّةَ في سياقِ تأكيدِ الصحبةِ/ عِشرة، والأهلِ / بيت، والمغيبِ، وأكَّدَ الأخيرةَ بـ (من) الزائدةِ التي تُفيدُ توكيدَ العمومِ، ومن شروطِ زيادتها سبقها بنفي أو نهي أو اِستفهامٍ ، ومجيء مجرورها نكرةً، في موقعِ أعرابِ فاعل أو مفعول أو مبتدأ [٤٧]. وفي النصِّ أفادَتْ عموم المغيبِ، ونُفيتْ بـ (ما) التي بمعنى (ليس) إلاَّ أنَّها آكدُ منها، وأوسعُ اِستعمالاً، لكونها تدخلُ على الجملِ الاسميةِ والفعليَّةِ، ولها زمنيةُ الحالِ والمُضي، وقد لا تُقيَّدُ بزمنٍ [٤٨]، وأجدُ في زمنيتها اِمتدادًا من المضي حتى وقتِ التكلُّمِ، أي الحال، وهي اِسمُ (ما) العاملةِ عملَ (ليس)، إذْ إنَّ تقدير الجملةِ (وما هناكَ مَغيبٌ ...)، وجملةُ (يُغادِرُ دونِي) وصفيَّةٌ.

وقُدِّمَ (لي) شبه الجملة من الجار والمجرور على المبتدأ (عِشرة)، إرادةَ تخصيصِ الخطابِ بالمُتكلِّمِ، وأصلُها (عِشرةٌ لي)، ليُبيِّنَ الشاعِرُ أنَّ كُلَّ مَغيبٍ في بلادهِ مَغيبٌ في ذاتهِ، لنُدرِكَ حقيقةَ تلكَ الذَّاتِ الذاويةِ بتوالي سنين الغربةِ.

وفي رفضِ اِستلابِ الهويَّةِ، واللاانتماء، رفضٌ للغربةِ، إذْ زاوجَ الشاعِرُ بينَ واقعِ موطنهِ، وحالِ عيشهِ في المنفى، بقولهِ[٤٩] :

مدينةٌ أرسُمُها
فتأخُذُ المياهُ والنخيلْ
والذكرياتُ هيئةَ القتيلْ
هُنا على أرصفةِ الشَّوارِعِ الخلْفيَّة
مُلقًى بلا هُويَّة .

هيأ الشاعِرُ بنيةً تركيبيَّةً تُمثِّلُ اللاوجودَ الذَّاتيّ ، (مدينةٌ أرسُمُها) تركيبٌ اِسميٌّ منحهُ الفعلُ المضارعُ زمنيَّةَ الاستمرارِ، وهو ما أشرنا إليهِ آنفًا ، إرادةَ مُرافقةِ مدينتهِ إيَّاه، هذهِ المدينةُ أحجمَ عن ذكرِ اِسمِها، واِكتفى بذكرِ ملامحها كنايةً لها(المياه، النخيل، الذكريات)، والكنايةُ "لفظٌ أُطلِقَ وأُريدَ بهِ لازمُ معناه مع قرينةٍ لا تمنعُ من إرادةِ المعنى الأصلي" [٥٠]، وهي كنايةٌ عن موصوفٍ، فمدينةُ المياهِ والنخيل بغداد، وصبا وشباب الشاعِرِ بغداد، ليلحقها بصيغةِ (فَعِيْل – قتيل) بمعنى (مفعول

– مقتُوْل)، مُصرِّحًا عَبْرَها أنَّ هذهِ المدينةَ جُني عليها، وجُنِي على الشاعِرِ إذْ هجرها ، مُلتحفًا الأرصفةَ، بلْ الأرصفةُ الخلفيَّةُ بلا هُويَّةٍ، وفيها إشارةٌ إلى التجرُّدِ من عوالِمِ بيئتهِ الاجتماعيَّةِ.

قرنَ الشاعِرُ بينَ موتِ مدينتهِ، وموتِ اِنتمائهِ المجتمعيّ في الغربةِ، بأداةِ الإشارةِ (هنا)، وهي لازمةٌ للظرفيَّةِ المكانيَّةِ [٥١].

وفي المضمونِ نفسه، ما يُعزِّزُ رفضهُ الغربةِ، قال [٥٢]:

يا طائرًا ألقى على ضريحي جناحهُ المُبتل :

لستُ شهيدَ وطني المُحتلْ ،

لكنَّني سُدًى وقبضُ رِيح !!

بدأ النصُّ ببنية النداء، وهي بحدِّ ذاتها صيغةٌ خِطابيَّة ذاتُ فعلٍ محذوفٍ [٥٣]، يرادُ بها عطفَ المخاطَبِ على المُخاطِبِ، بهدفِ عملٍ لُغويٍّ آخرَ هو المُرادُ من الإتيانِ بهِ، أي إنَّه صيغةٌ تمهيديَّةٌ لُغويَّةٌ [٥٤]. وفي حقيقةِ الأمرِ أنَّ هذا الخطابَ ذاتيٌّ، ولا سيما إنْ أدركنا صنفَ هذا الطائر، إنَّهُ الطائر الاسطوريّ (العنقاء)، وبذا يُعدُّ الاسمُ المنادى نكرةً مقصودةً.

هذا الطائرُ المفترضُ أو المنقرضُ (ألقى) بجزءٍ من تكوينهِ الخلْقي المهم (جناحه) على (ضريح) الشاعِرِ، لينفي أنَّهُ شهيدٌ بـ (لستُ)، و(ليس) للنفي مطلقًا، غيرَ أنَّها تُفيدُ زمن الحالِ إنْ لَمْ تُقيَّدْ بزمنٍ، فإنْ قُيِّدَتْ، فهي بحسبِ زمنيَّةِ المُقيَّدِ بهِ [٥٥]، وأجدُ زمنيتها في النصِّ الحال.

ونفيُ الشاعِرِ أمرَ الشهادةِ دفعهُ إلى الاستدراكِ بـ (لكن)، حتى لا يُتوهم من نفي الأوَّلِ نفي للثاني [٥٦]، بمعنى أنَّهُ ثبَّتَ حقيقةَ ضياعِهِ في أرضٍ غيرِ الوطنِ، مُشبِّهًا نفسهُ بقبضِ ريحٍ، فهو لَمْ يمُتْ شهيدًا من أجلِ وطنهِ المُحتلِّ، والمُحتلُّ هنا ذو الدَّال الفكريِّ وليسَ المكانيّ، بمعنى أنَّهُ لَمْ يمُتْ من أجلِ قضيَّةٍ ، بل للاشيءٍ ، وعدَّ الشاعرُ الغربةَ حوضًا آسنًا، في قولِه[٥٧]:

عبثًا يخترقُ الإنسانْ

تيّارَ الإيامِ الصعبة

للحوضِ الآسِنِ في الغُربة .

قدَّمَ الشاعِرُ الحالَ (عبثًا) على صاحبهِ (الإنسان)، ليمنحَ المُتلقي فكرةَ عدميَّةِ معادلةِ العيشِ في الغربةِ، ولا جدواها، فـ (تيَّار / صعبة / آسن) ألفاظٌ تنمُّ عن شدَّةِ الاختراق وضيقهِ، فضلاً عن جعلهِ حاضنةَ التيَّارِ حوضًا آسنًا.

واختتِمُ البحثَ باستنكارِ الشاعِرِ ما آلَ إليهِ حقُّهُ والعراقيونَ في المنفى من الوطنِ والأهلِ والأصحابِ، قائلاً [٥٨]:

يكفينا من بيتِ أبينا

مَنْ رحلُوا عنهُ ومَنْ قُتِلُوا .

يكفينا فيءٌ مُكتحِلُ

فيءٌ في أعينِنا وجِلُ .

يكفينا شوقُ عراقيينَ أضاعُوا الشوقَ ولَمْ يصلُوا .

وظَّفَ الشاعِرُ ضمير المتكلِّم الجمعي (نا / نحن) في الفعلِ المضارعِ (يكفينا)، مُكرِّرًا إيَّاه في مواضعَ حصرَ فيها أبناءَ الوطنِ بينَ مهاجِرٍ ومقتُولٍ، وفيهِ نُدرِكُ عِلَّةَ الهجرةِ الجماعيَّةِ، مكنيًّا عن الوطن بـ (بيتِ أبينا)، وهي كنايةُ عن موصوفٍ، إرادةَ مكمنِ لَمِّ الشملِ والاحتواءِ.

والوطنُ / فيءٌ عدَّهُ مُظلِمًا بلونِ الكُحلِ، هذا الفيءُ في أعينِ أبنائهِ خوفٌ وفزعٌ / وَجِل[٥٩]، وليسَ ظِلاً يقيهُم، أو يحميهم، ثمَّ ما بينَ العراقيينَ في الوطنِ و خارجهِ وشيجةُ الشوقِ، لتدفعَ بهم إلى التلاقي، إلاَّ أنَّ شوقهم هذا ضاعَ بضياعِهم، ولم يُوفَّقُوا في الوصولِ إلى الأحبَّةِ.

الهوامش والمصادر :

١. فوزي كريم شاعرٌ وكاتِبٌ وناقِدٌ ورسَّامٌ عراقيٌّ ، ولِدَ ببغداد / محلَّة العباسيَّة (الكرخ) عام ١٩٤٥ م ، تخرَّجَ في جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم اللُّغة العربيَّة عام ١٩٦٨م ، غادر بغداد مرتين ، الأولى إلى بيروت عام ١٩٦٩ م ليعود إلى أرض الوطن عام ١٩٧٢م ، والثانيَّة إلى منفاه الاختياري الأخير لندن عام ١٩٧٨م لتكونَ مقامه حتى اليوم . عَمِلَ في التدريس ، ليتفرَّغَ بعدها إلى النشاط الأدبيِّ والفنيِّ ، صدرت أعمالهُ الشعريَّةُ بجزأيها عن دار المدى للثقافةِ والنشرِ عام ٢٠٠١م ، وأصدرَ مجلته الشعريَّة الفصليَّة في لندن (اللحظةُ الشعريَّةُ). يُنظر : الانترنيت : موسوعة ويكبيديا Wikipedia.Org بتاريخ الاثنين ٢٠/ ٣/ ٢٠١٥م ، وموقع الشاعر Fawzikarim.com بتاريخ الجمعة ٢٠١٥/٥/١٥م .

٢. د. نايف خرما ، أضواءٌ على الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ المُعاصِرةِ ، المجلس الوطني للثقافةِ والفنونِ والآدابِ ، الكويت ، ١٩٧٨م ، ١٠٨ .

٣. يُنظر : ، د. سامي الدروبي ، علمُ النَّفسِ والأدبِ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨١م ، ط٢، ٦١ .

٤. يُنظر : جان بول سارتر ، ما الأدبُ ؟، ترجمة : محمد غنيمي هلال ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ١٩٦١م ، ١٠ ، ١٢ .

٥. يُنظر : د. عادل البكري ، الفلسفةُ لكُلِّ النَّاسِ، ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م ، ١٢ .

٦. يُنظرُ : د. فؤاد زكريا، آفاقُ الفلسفةِ ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٨م، ٣٧٣– ٣٧٤ .

٧. يُنظرُ : مجدي وهبة وكامل المهندس ، معجمُ المصطلحاتُ العربيَّةُ في اللُّغةِ والأدبِ، ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤م، ط٢ ، ٢٧٨ .

٨. يُنظرُ : د. عادل البكري ، الفلسفةُ لكلِّ الناسِ ، ٢٥– ٢٦ .

٩. يُنظرُ : غاستون باشلار ، فلسفةُ الرفضِ، ترجمة : خليل أحمد خليل ، دار الحداثة ، لبنان ، ١٩٨٥م ، ٨ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ .

١٠. يُنظرُ : د. سامية عبد الرحمن ، الميتافيزيقيا بين الرفضِ والتأييدِ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٩٣م، ١٧، ٢٢ ، ٢٣ .

١١. يُنظرُ : سليمان البكري ، أدبُ الرفضِ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٦م ، ٧ ، ٨ ، ٢٤ .

١٢. يُنظرُ : فوزي كريم ، الأعمال الشعرية ، دار المدى ، دمشق ، ٢٠٠١م ، ١/ ٩ ، ١٠، ١١، ١٢، ١٦، ١٧ . (المقدِّمة)

١٣. ينظر : أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، مقاييس اللُّغةِ ، تحقيق: د.محمد عوض وفاطمة محمد، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م ، مادة (رفض) ، ٣٩٥ ، و أبو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) ، الكليات ، تحقيق: د.عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م ، ط٢، مادة (الرفض) ، ٤٧٩ .

١٤. ينظر : د.انتصار يونس ، السلوك الإنساني ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٣م ، ٣٤٩ .

١٥. فوزي كريم ، الأعمال الشعرية ، ١/ ٣٧ .

١٦. عمرو بن عثمان (سيبويه ت ١٨٥هـ) ، الكتاب ، تحقيق : د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، ٣/ ١٣٥ .

١٧. ينظر : اِبن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: د.مازن المبارك، مؤسسة الصادق ، طهران ، د.ت. ، ١/ ٣٢٢ .

١٨. ينظر : أبو البقاء الكفوي ، الكليات ، ٩٦٥ .

١٩. ينظر : د. فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، دار الفكر ، الأردن ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م ، ط٢، ٤/ ١٧٦ .

٢٠. ينظر : د. عبد الله الجبوري ، تطوُّر الدَّلالة المعجميَّة بينَ العامي والفصيح ، المجمع العلمي ، العراق، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م ، ١/ ٢١١ .

٢١. ينظر : اِبن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١/ ٣٨٥ .

٢٢. فوزي كريم ، الأعمال الشعرية ، ١/ ٢٢٩ .

٢٣. ينظر : اِبن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١/ ٣٢٣ ، وعبد السلام هارون ،الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٣٩٩هـ– ١٩٩٧م ، ط٢ ، ١٨٤ .

٢٤. ينظر : السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، ضبط وتدقيق وتوثيق : د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، بيروت، د.ت.، ٧٦ .

٢٥. ينظر : أحمد بن عبد النور المالقي (ت ٧٠٢هـ) ، رصفُ المباني في شرح حروف المعاني ، تحقيق: أ.د. أحمد محمد الخرَّاط ، دار القلم ، دمشق ، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م، ط٣ ، ٣١٥ ، و اِبن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١/ ٤٨٨ .

٢٦. يُنظر : مُحمد شوقي الزين ، الإزاحةُ والاحتمالُ .. صفائحُ نقديَّةٌ في الفلسفةِ الغربيَّةِ ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م ، ٩٤ .

٢٧. فوزي كريم ، الأعمالُ الشعريَّةُ ، ١/ ١٦٨ .

٢٨. يُنظرُ : عثمان بن عمر المعروف بـ (اِبن الحاجب) (ت ٦٤٦هـ) ، شرحُ الرضي على الكافية ، تحقيق: يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ١٩٩٦م ، ط٢ ، ٤/ ٤٢١ ، و اِبن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١/ ٩٧ .

٢٩. أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة ، مادة (ومض) ، ١٠٦٦ .

٣٠. ينظر : إبراهيم مصطفى وآخرونَ ، المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، تركيا ، ١٩٨٩م ، مادة (ومض) ، ١٠٥٨ .

٣١. يُنظر : عثمان بن عمر المعروف بـ (اِبن الحاجب) ، شرح الرضي على الكافية ، ٢/ ٤٨٠ ، و مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م ، ٩٠ .

٣٢. يُنظر : محمد الشاوش ، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية ، جامعة منوبة ، تونس ، ١٤٢١هـ– ٢٠٠١م ، ١/ ١٠٦٢ .

٣٣. د. أحمد مداس ، لسانياتُ النصِّ نحو منهجٍ لتحليلِ الخطابِ الشعري ، عالم الكتب الحديث ، عمَّان، ٢٠٠٩م ، ٢٦٢ .

٣٤. فوزي كريم ، الأعمالُ الشعريَّةُ ، ١/ ٢٦٢ .

٣٥. يُنظر : أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة ، المواد (حَوَمَ) ، ٢٧١ ، و(نبش) ، ٩٧١ ، و(قَوَمَ) ، ٨٣٩ .
٣٦. يُنظرُ : إبراهيم مصطفى وآخرونَ ، المعجم الوسيط ، مادة (حَجَّ) ، ١٥٦ .
٣٧. يُنظر : ينظر : مادتا (غمر) و(سدم) في أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة ، ٧٧٥ ، ٤٩٠ ، و إبراهيم مصطفى وآخرونَ ، المعجم الوسيط ، ٦٦١ ، ٤٢٤ .
٣٨. فوزي كريم ، الأعمالُ الشعريةُ ، ١/ ١٦٦ .
٣٩. يُنظر : محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، نقلاً عن : سليمان عطية حمدان ، العلاقة بين الاغتراب النفسي وبعض المتغيرات المتعلقة به لدى طلاب وطالبات جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، رسالة ماجستير ، كلية التربية / علم النفس ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤١٥هـ ، ١٥ .
٤٠. يُنظر : أبو سليمان حمد البُستي (ت٣٣٨هـ) ، العزلة ، تحقيق: ياسين محمد السوَّاس ، دار اِبن كثير، دمشق ، ط٢، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م ، ١١٧ .
٤١. يُنظر : إبراهيم مصطفى وآخرونَ ، المعجم الوسيط ، مادة (رقبه) ، ٣٦٣ .
٤٢. ينظر : أبو البقاء الكفوي ، الكُليات ، ٣٤١ .
٤٣. فوزي كريم ، الأعمال الشعرية ، ١/ ١٥٥ .
٤٤. ينظر : د. إسماعيل عبد الفتاح ، الابتكارُ وتنميته لدى الأطفالِ ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، ٨٥ .
٤٥. يُنظر : مادة (طلَّ) في أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة ، ٥٩٢ ، وإبراهيم مصطفى وآخرونَ ، المعجم الوسيط ، ٥٦٤ .
٤٦. فوزي كريم ، الأعمالُ الشعريةُ ، ١/ ١٦٤.
٤٧. ينظر : اِبن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١/ ٤٢٥– ٤٢٦ .
٤٨. يُنظر : د. فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، ٤/ ١٦٣– ١٦٤ .
٤٩. فوزي كريم ، الأعمالُ الشعرية ، ٢/ ٤٣ .
٥٠. السيد أحمد الهاشمي ، جواهرُ البلاغةِ ، ٢٨٧– ٢٨٨ .
٥١. يُنظر : عثمان بن عمر المعروف بـ (اِبن الحاجب)، شرح الرضي على الكافية، ٢/ ٤٨٤ .
٥٢. فوزي كريم ، الأعمال الشعريَّة ، ٢/ ٢٣ .
٥٣. ينظر : عمرو بن عثمان (سيبويه ت ١٨٥هـ) ، الكتاب ، ٢/ ١٨٤ .
٥٤. ينظر : أبو العباس محمد المُبرّد (ت ٢٨٥هـ) ، المقتضب ، تحقيق : عبد الخالق عضيمة ، وزارة الأوقاف ، مصر ، ١٤١٥هـ– ١٩٩٤م ، ٢٩٨/٣ ، و محمد الشاوش ، أصول تحليل الخطاب ، ٢/ ٦٨٠ .
٥٥. يُنظرُ : عثمان بن عمر المعروف بـ (اِبن الحاجب) ، شرح الرضي على الكافية ، ٤/ ١٩٨– ١٩٩، و د. فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو ، ٤/ ١٦٣ .
٥٦. ينظر : اِبن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، ١/ ٣٨٣ .
٥٧. فوزي كريم ، الأعمالُ الشعريةُ ، ١/ ٣٢٣ .
٥٨. المصدر نفسه ، ١/ ٢٥٤ .
٥٩. ينظر : إبراهيم مصطفى وآخرونَ ، المعجم الوسيط ، مادة (وجل) ، ١٠١٤ .